# تخليق القيادات قبل تخليق المجتمعات

عبد الهادي التازي

لو كنت (قيم خزانة) كما كنا نقول بالأمس أو محافظ مكتبة كما نقول اليوم لكان علي أن أوزع مادة (التخليق) على صنفين اثنين : يتعلق الصنف الأول بما نسميه اليوم المجتمع المدني ... بينما يختص الصنف الثاني بقادة هذا المجتمع، قادة وولاة ورؤساء وزعماء ...

ثم لكان علي بعد هذا أن أخصص خانات لما كتب عن تخليق المجتمعات منذ أن استعملت كلمة المجتمع في كل لغة ... ثم بعد هذا أن أخصص خانات أخرى لما كتب عن تخليق القادة أنفسهم على مختلف مراكزهم في تلك المجتمعات. وهذا ما قمت به فعلا طوال شهور منذ اقترحت على أكاديمية المملكة المغربية هذا الموضوع لهذه الندوة ...

وقد شعرت بالحاجة الماسة إلى المعجم التاريخي اللغوي الذي نسعى اليوم، على صعيد اتحاد المجامع، من أجل إعداده وإنجازه ...

وقد قمت – ولا أكتم ذلك – باستشارة دقيقة لكل المعاجم التي تتوفر عليها الخزائن العلمية انطلاقا من (كتاب العين) للخليل ابن أحمد الفراهيدي (تـ = 175 786م) وانتهاء بالعالم اللغوي المغربي ابن الطيب الشركي الفاسي المتوفى بالمدينة المنورة عام 1757 = 1170 والذي كان محل إشادة كبيرة من لدن مرتضى الزبيدي (تـ 1790 = 1205) صاحب تاج العروس ... قمت باستشارة تلك المعاجم

MAROCDROIT
موقع العلوم القانونية

فما وجدت أدق ولا أدل من حديث الأزدى العُماني الصحاري الذي أدركه أجله في بلنسية الأندلسية عام 1084 = 486، وذلك في معجمه الغريب العجيب الذي يحمل اسم (كتاب الماء) وهو على ما نعلم – أول معجم طبي لغوي في التاريخ ...

لفت نظريي ما قاله الأزدي في مادة (الخلق) التي ابتكرنا منها كلمة التخليق هذه الكلمة التي لم تستعمل في خطابنا بالعربية إلا قبل عقد من زمننا بعد أن استعملها الفرنسيون عام 1834 على ما يفيده لوروبير (Le Robert)، وقع اختياري على ما أورده الأزدي لسببين اثنين : الأول : أن الأزدي تنبه بحسه الفائق إلى **صلة الكلمة بالطب** ونحن نعلم أن الأزدي كان من ملازمي الرئيس ابن سينا ! الثاني : لأنه كان يعلم جيداً عن علاقة الكلمة بالشأن التربوي ...

وإني لأقترح عليكم إملاء السطور الثلاثة التي وردت عند الأزدي مما لم أجده في معجم غير هذا المعجم الذي يحمل عنوان "كتاب الماء" كما أسلفت.

قال : الخلق ملكة تصدر عنها الأفعال النفسانية بسهولة من غير روية، وتتغير بالتجربة، وبأوامر الشريعة ونواهيها، واتفاق العقلاء، وتختلف الاستعدادات فيه بحسب الأمزجة.

ولكي يلم الأزدي بمادته كاملة أضاف ما يلي :

والخليقة : الطبيعة، قال زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تعلم[1]!

ثم بعد هذا، كان جردي للتآليف التي اهتمت بتخليق المجتمعات ... ثم للتآليف التي اهتمت بتخليق قادة تلك المجتمعات من رؤساء وزعماء وقادة وولاة كما قلنا.



وكانت الظاهرة الملفتة للنظر، حقا أن سائر المؤلفين والمفكرين والعلماء والأدباء توجهوا أكثر إلى القمة وليس إلى القاعدة، توجهوا للذين يتصدرون الساحة، باعتبارهم القدوة ... إذا تخلقت تخلق من في الساحة وإذا تخلفت تخلف من في الساحة !!

ومن هنا وجدنا طائفة من التآليف التي ترد تحت عنوان الولاة، القضاة، الحكام، السلاطين، الملوك، الخلفاء. معظم تلك التآليف إن لم أقل كلها، ينصب على تبليغ الرسالة لولاة الأمر حتى يكونوا في مستوى مسؤوليتهم : باعتبار أنهم أمام مجهر شعوبهم ومجتمعاتهم، وأنه لا تغيب من أعمالهم وتحركاتهم أية بادرة كيفما كانت ...

وهكذا فكل الذين كتبوا حول الفضيلة والرذيلة إنما كانوا يقصدون إلى تقويم المعوج في **الولاة** الذين يبدون عراة على رأس السلم... مكشوفين عند الذين يقفون من تحت ذلك السلم !!

ولنستعرض – للفائدة – بعض العناوين مما اشتملت عليه بعض **معاجم الموضوعات** المطروقة في التآليف الإسلامي، وهي مرتبة حسب الحروف الهجائية.

أحكام السلاطين لقاضي بغداد يوسف ابن الحسن الحسيني.

الأحاديث المنيفة في السلطنة الشريفة، للسيوطي.

الأحكام فيما يجب على الحكام، للقرطبي.

أخلاق الملوك للجاحظ.

الآداب السلطانية للفخري.

آداب السلطان للمدائني.

آداب الملوك للسيوطي.

إرشاد الملوك والسلاطين للقابقجي.

الإشارة الناصحة لمن طلب الولاية بالنية الصالحة.

بدائع للسلك في طبائع الملك لابن الأزرق.

بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان، وولاة الأمور والرعية، لابن الرفعة ومحب الدين المقدسي.

تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، للمغيلي.

والتبر المسبوك في صفات الملوك، للميموني.

والتبر المسبوك في نصائح الملوك للغزالي.

وتبصرة الملوك وتذكرة السلاطين، لابن مظفر.

والتحفة الملوكية في الآداب السياسية، للماوردي.

وتحفة الملوك والسلاطين فيما تقوم به أسس أركان الدين، للشرازي.

والتحفة المدونة في أسرار السلطنة، للذؤلي.

وتحفة الملوك في السير والسلوك، للدمنهوري.

وتدبير الملك والسياسة، لسهل بن هارون.

وتهذيب الداعي، في إصلاح الرعية والراعي، لأبي الحسن العَبّادي.

وجمر الغضا لمن ولى القضا، لابن حجر.

الذرة الغراء في نصائح الملوك والوزراء، للشيخ محمود الجيزي.

والذهب المسبوك في وعظ الملوك، لابن فتوح.



الذهب السبوك في سير الملوك، لابن الجوزي.

ورفع الشكوك في نصائح الملوك، للسخاوي.

ورسالة السلوك للسهروردي، (توفي عام 632 هـ)

وزهر البساتين، بين يدي الملوك والسلاطين، للشيخ زادة.

وسراج الملوك للطرطوشي، (توفي عام 520).

وسر السراة في أدب القضاة للقاضي عياض.

وسلوك المالك في تدبير الممالك، لابن أبي الربيع.

والسياسة الشرعية، في صلاح الراعي وسعادة الرعية، لإبن تميمة.

والسياسة الملوكية، للسرخسي.

وشرائط الخلافة للاسفراييني. (توفي عام 488).

وفضل القيام بالسلطنة، للسيوطي.

وكتاب من أحتكم من الخلفاء إلى القضاء، لأبي هلال العسكري.

واللؤلؤ المنثور في نصيحة ولاة الأمور، للمسعودي.

ولوازم القضاة والحكام في إصلاح أمور الأنام، للشبراوي.

والمنقذ من الحرمان فيما يجب على الأمير والسلطان.

نصائح الملوك، لقوام الذين.

والنصائح الإيمانية لذوي الولايات السلطانية، للناشري.

النصائح المهمة للملوك والأئمة، للشيخ علوان ابن عطية.

والنهج المسلوك في سياسة الملوك، للشيخ عبد الرحمان.

والعروس، في السانس والمسوس، لابن أبي طي.

وعمدة السالك في سياسة الممالك، للمنجنيقي.

وواسطة السلوك في سياسة الملوك، لموسى بن يوسف.

فرأفةً وإشفاقاً وشعوراً بالواجب تجاه الولاة، والحكام والقيادات، قصدت ثلة من العلماء والحكماء إلى الأخذ بيد الوالي والحاكم حتى لا ينزلق ولا ينحرف، لأن السلطة قد تصيب صاحبها بغيبوبة، (السلطة تخدر أحيانا صاحبها)، السلطة متاهة تجعل الحاكم أعمى لا يبصر، ولو أن له عيونا، لا يسمع ولو أن له آذانا، وتجعله أبكم ولو أنه فصح اللسان ! ...

ومن خلال تتبعنا لما ألف حول تخليق المجتمع، وجدنا أن عدد العناوين يفوق كل حد، وما أثبته هنا إنما هو قل من كثر ...

وهكذا ففيما يتصل بالمجتمع لا نغفل عن أن مختلف التوجيهات والخطابات، على أي مستوى أو صعيد كانت تهدف إلى تحسيس المجتمعات، بيد أن هذه المجتمعات – كما أشرنا – لا تنصاع إلى التخليق إلا إذا وحدت أمامها **قدوة** في الخلق الرفيع وفي الانضباط المطلق !.

وفي نظري فإن أفضل وأشمل وأكمل ما يمكن أن اقترح قراءته من لدن المهتمين بالموضوع هو كتاب ألفه مغربي هاجر إلى المشرق، كتاب من أرفع الكتب وأحسنها مما يتصل **بالتخليق** ... وهو يرجع لأوائل القرن الثامن الهجري ... ويتعلق الأمر بالعالم العامل أبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير **بابن الحاج**، المتوفى بالقاهرة سنة 737، وكتابه المشار إليه يحمل عنوان (المدخل) ... قال عنه ابن حجر : "كشف في هذا الكتاب عن معايب يفعلها الناس ... ويتساهلون فيها ... وكان الكتاب يهدف أصلاً إلى تلقين الناس



مقاصدهم في أعمالهم ... وقد سماه (المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات)...

أرجو أن ترجعوا إلى هذا (المدخل) الذي يحتوي على أربعة أجزاء في مجلدين اثنين...

لقد كان أجمل ما في هذا الكتاب الذي ألف قبل سبعة قرون ما يتصل اتصالا وثيقا بشأن التخليق، كتاب يشعر الصانع والفلاح والتاجر والحلاق والأستاذ والطبيب والعشاب والعامل والقصاب ... بأن هؤلاء وهم يمارسون مهنتهم ووظيفتهم بإتقان وتفان وإخلاص، يشعرهم بأنهم مواطنون صالحون ... يشعرهم بأنهم، وهم يحسنون عملهم، ويتقنون أداءهم، بأنهم **ولكأنهم في محراب يعبدون ربهم** !!

وهو بين هذا وذاك يرشد المواطن لكي لا يخرج عن الصف فلا يشد، ولا ينحرف! ولا يروع بني قومه. لقد كانت رسالة سائر الذين كتبوا أو تحدثوا عن تخليق المجتمعات تتمثل في أن يجعلوا من هذه المجتمعات دعاة للفضيلة ورسلا للسلام وأداة رادعة لكل أنوع الانحراف والانزلاق والشعوذة والارتزاق ...

وحتى أبقى مع الحقل الذي أنتسب إليه أرجو أن أذكر أن في صدر ما كانت تدعو إليه مبادئ التخليق بالنسبة لرجال الفكر أن ينفقوا مما عندهم بسخاء، وأن يقتنعوا بأن كسبهم سيكون أكثر، وأن لا يهيمن عليهم حب الذات، فيعملوا – بالنسبة لزملائهم – بالخلق الذي سماه الأولون بالأمس **الغفلة عن نصيب النفس**.

وحتى لا أبتعد أيضا عن اهتمامي بالشأن الدبلوماسي أرجو أن أذكر ببعض التآليف التي كانت تتعلق بتأطير المواطنين المغاربة من الذين لهم صلة بالخارج، ممن كان عليهم أن ينقلوا للولاة في المغرب صورة الآخر في الضفة

الأخرى حتى تقتبس الأنفع منها، وممن كان عليهم في الوقت ذاته أن يشعروا ولاة أمرنا بما كان أولئك الدبلوماسيون يعتقدون أن المغرب جدير به قبل أن يكون شريعة للآخرين.

لنلق نظرة سريعة على ما كان يقوم به رحالتنا وسفراؤنا بالأمس عندما يفتحون عيونهم على فضائل الآخرين خارج البلاد، ويعودون إلى بلادهم فيشعرون بواجبهم في كتابة تقاريرهم ...

كان سفراؤنا يعودون ليحكوا عما شاهدوه من تقدم في الجهات الأخرى ويقصدون بتلك الحكايات دون شك إشعار الولاة والحكام، ومن خلال هؤلاء يقصدون إلى تخليق المجتمع حتى لا يبقى بعيدا عن الركب الحضاري الذي كان في طريقه نحو التقدم...

ومن غير ما أن أطيل حول هذا الجانب الذي كان يهمني كثيرا، أشير إلى تقارير الدبلوماسيين الذين كانوا يتحدثون عن تقدم الصناعات البحرية، ويتحدثون عن البرلمانات في أوربا، وعن الصحف التي كانت تنطق بلسان طائفة من الناس في بعض البلاد الأجنبية ...

وقد رأيت أن أسجل لقطةً دالةً من اللقطات التي ذكرها أبو حامد الغرناطي مما يتصل بشأن التخليق، في القرن السادس الهجري مقارنةً بين دار الإسلام ودار الآخرين.

لقد لاحظ أبو حامد وقد زار بلاد الهند والصين أن القوم هناك كانوا أعلم الناس بأنواع الصناعات العجيبة وهم مع أنهم **يعبدون الأصنام** كانوا يتمسكون بنوع من الضوابط لا يحيدون عنها، وخاصة فيما يتعلق بأهل الديانات الأخرى وفي مقدمة هؤلاء المسلمون...



لاحظنا أن أبا حامد، وهو يرى أن بلاد الإسلام لا تنضبط مع الأحكام التي عرفها الإسلام ... كان يتألم ولا يخفي شعوره بالجرح العميق، وهكذا حكى لنا ما يلي :

"... وكان أهل الصين يحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام، ولا يأخذون منهم أعشارا في بيع وشراء ولا مكس عندهم، قال : فيا ليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة الحسنة، فكانوا أحق بها من غيرهم!.

قال – وكأنه يسخر من الوضع المتردي للمسلمين – قال : "ولعل ذاك للحكمة الإلهية، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الدنيا سجن المؤمن) والسجن موضع الضيق والخوف ولا يكون ذلك إلا مع عدم العدل وكثرة الظلم والجور وقلة المال وعدم الخصب حتى يتحقق في حق المؤمن (السجن في الدنيا) !!. وقال عليه السلام : الدنيا جنة الكافر والجنة موضع الرخاء والنعمة والأمن والعدل والسياسة والطيب وأنواع الطيبات.

وقد ختم أبو حامد الغرناطي بهذا التعبير الساخر الذي كنت أشعر بالخجل وأنا أقرأه مترجما من لدن آخرين أجانب عنّا – أقول ختم بهذا التعبير القصير في حجمه، العظيم في معناه :

«الحمد لله الذي جعل جور ُولاة المسلمين من معجزات سيد المرسلين» !!

وهكذا نضيف شهادة أبي حامد الغرناطي وهو َمنْ هو ! إلى ما ألف حول التوجه، في شأن التخليق إلى أولي الأمر بالدرجة الأولى.

وبعد، فإن أم الرسائل التي وجهها القادة والمصلحون والسياسيون في مختلف مراحل التاريخ إلى المجتمعات التي يحكمونها أو يقودونها، تظل متلخصة في كلمة واحدة تخليق المرؤوسين. لكن هؤلاء المرؤوسين لا يمكن أن يضبط أمرهم إلا قائد صادق غير كاذب، يعطي لقومه الدليل تلو الدليل على أنه يتفانى في

خدمتهم لا يظلمهم ولا يحتقرهم ولا يكذب عليهم بمعنى أنه قدوة لهم في السلوك... وبمعنى أنه مثالي في سيرته جاعلا نصب عينه قول الشاعر :

إذَا كَانَ رَبُّ الدَّارِ لِلطّبلِ ضَارِباً  فَلاَ تَلُمِ الصِّبْيَانَ فِي حَالَةِ الرَّقْص !!

## الهامش

1) كتاب الماء لأبي محمد عبد الله بن محمد الأزدي الصحاري.

تحقيق د. هادي حسن حمودي، ج2، ص 40. طبعة أولى 1996 = 1416 سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة.